عروض كتب

قراءة في كتاب " الذهنية البروتستنتية وروح الرّأسمالية " لـ : ماكس فيبر

مقايز محمد،
مخبر البحوث الإجتماعية والتاريخية،
جامعة معسكر.

ـ تمهيد :

هذا النص الذي طبع سنة 1947 ضمن المجموعة : " بحوث في العلوم الإنسانية " التي كان يديرها دي دمبيار E. De Dampierre هو جزء من " دراسات في سوسيولوجية الدّين " لِـ ماكس فيبر Max Weber وجاء مرتبا على :

ـ تمهيد مطول أبرز فيه خاصّية الحضارة الغربية في كلياتها وجزئياتها مقارنة مع الحضارات الأخرى، ثم حدّد في هذا التمهيد إشكالية العلاقة بين الذهنية البروتستنتية وروح الرّأسمالية، متسائلا هل هذه العلاقة توافقية؟

ـ يلي هذا التمهيد ستة دراسات؛ يعالج بوضوح من خلال الدراستين الأولى والثانية، 1ـ المعتقد والتركيبة الطبقية الإجتماعية، ثم 2ـ روح الرأسمالية، حيث أجاب خلالهما على تساؤلات الإشكالية مبيّنا أنّ العلاقة بين البروتستنتية والرأسمالية، ليست توافقية فحسب بل أبعد من ذلك، إنها علاقة سببية.

أما باقي الدراسات 3ـ مفهوم الكدّ " Beruf " عند لوثر Luther، 4ـ أسس التقشّف اللاّديني، 5ـ التّقشّف وروح الرّأسمالية، 6ـ الطوائف البروتستنتية وروح الرّأسمالية، فهي لا تعدوا أن تكون تكميلية، وباعتراف فيبر نفسه فإنها لا تحمل قيمة تحليلية كبيرة بل تتتبّع بانتقاء كل العناصر التي من شأنها أن تظهر الفرق بين الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات. فهو يقرّ بأنها موجّهة وبالتالي يؤكد محدوديتها. لذا اكتفينا بالأولى والثانية دون غيرهما.

ـ خصوصيات الحضارة الغربية:

يقول فيبر أن دوائر المعرفة الإنسانية والفنون بأشكالها المتعددة والتي شملت كل جوانب الحياة وُجدت بقدر متفاوت وفي أطوارٍ شتى عند كل الشعوب والحضارات وعبر كل العصور منذ فجر التاريخ (الصينيون، الهنود، العرب، البابليون وغيرهم) وبدون شكّ قبل أن توجد في الغرب. **لكن الفلسفة والفلك والفيزياء والكيمياء والطبّ والتاريخ والجغرافيا والحقوق والرياضيات والفن المعماري والسياسة والأدب والفنّ التشكيلي والموسيقى وغيرها لم ترق إلى درجة علوم قائمة بذاتها بالشكل التي هي عليه اليوم إلاّ**

بعد أن احتضنتها الحضارة الغربية وحكّمت أصولها وفروعها إلى قواعد المنطق والعقلنة التي انفرد بها اليونانيون دون غيرهم من الشعوب.

وكذلك الأمر بالنسبة للإقتصاد، فلا شكّ أن شعوب العالم كلّها عرفت أنماطا متعددةً من النشاطات الإقتصادية عبر مختلف العصور (الإقتصاد الحضاري، سياسات التموين الحضاري، الإقتصاد المحمي، التبادل الحرّ، الإقتصاد الإشتراكي إلخ...) **لكن عند أيّ من هذه الشعوب لم نجد بشكل أو بآخر مفهوم " البورجوازية " عدى في الغرب.** فعند فيبر المشكل الرئيسي ـ من وجهة نظر اقتصادية بحتة ـ لم يكمن في تطور النشاط الرأسمالي من حيث هو، **ولكن في تطوّر الرّأسمال البورجوازي المؤسساتي بنظامه العقلاني للعمل الحرّ أو بتعبير آخر يكمن المشكل في نشأة الطبقة البورجوازية الغربية بصفاتها المميّزة.**

من جهة أخرى فإن عنصرا آخر ذو أهمية بالغة ساهم بقدر كبير في بلورة الشكل العصري للرّأسمال الغربي؛ هو تطوّر الإمكانات التقنية. **إنّ عقلنة الرّأسمال أصبحت مرتبطة أساسا بإمكانية التقييم للعوامل التقنية الأكثر أهمية.** إنّ تطور العلوم والتقنيات المنبثقة عنها تَحْضَ بتشجيع كبير من طرف المصالح الرأسمالية التي تمنح جوائز لتطبيقها في المجال الصناعي.

كما أن عنصرا آخر، من عناصر البنية الإجتماعية الخاصّة بالغرب، ساهم هو الآخر في هذا التميز الغربي، يتعلّق الأمر **بالبنية العقلانية للحقوق والإدارة.** فالرّأسمال العقلاني يحتاج إلى توقعات مقوّمة بدقة تتعلّق بتقنيات الإنتاج وبالقانون، كما يحتاج إلى إدارة مضبوطة. لقد استفاد الغرب دون غيره في نشاطه الإقتصادي من نظام حقوقي وإدارة بلغا هذه الدرجة من الكمال القانوني والشكلي.

ـ المعتقد الديني والتدرّج الإجتماعي :

من خلال استقراءه للإحصائيات المهنية في الدول التي تتعايش فيها معتقدات دينية مختلفة يلاحظ فيبر ظاهرة أثارت جدلا كبيراً في الصحافة والأدب والمؤتمرات الدّينية : **إنّ مسيّري المؤسسات الإقتصادية وممتلكي رؤوس الأموال وممثلي الطبقات العليا لليد العاملة المؤهلة والإطارات العليا للمؤسسات الإقتصادية العصرية هم في الأغلبية الساحقة من البروتستنتيين.**

هذه الظاهرة تكرّرت وتفاقمت حيثما فسح المجال أمام الرأسمالية أثناء ازدهارها لتغيير النسيج الإجتماعي وتشكيل بنيته المهنية وفقا لاحتياجاتها. **إنّ المشاركة القوية للبروتستنتيين في امتلاك رؤوس الأموال وفي احتلال المناصب العليا داخل المؤسسات الصناعية والتجارية العصرية قد تفسرها (لكن نسبيا) الظروف التاريخية التي تظهر**

الإنتماء العقائدي ليس كسبب رئيسي في الوضع الإقتصادي بل كنتيجة له. إنّ عددا كبيرا من مناطق الرايخ الأكثر ثراءا ونموا والأكثر حضّا لمواقعها ومواردها الطبيعة وخاصّة أغلب المدن الثرية اعتنقت البروتستنتية منذ القرن السادس عشر. هنا يطرح فيبر تساؤلا تاريخيا : لماذا كانت المناطق الأكثر تقدما في المجال الإقتصادي أكثرها تحمّسا للثورة داخل الكنيسة ؟

إنّ التحرّر من القيود التقليدية للإقتصاد يبدو لأول وهلة عاملا أساسيا في تقوية نزعة التحرّر من القيود الدينية كذلك. لكن هناك حقيقة لطالما أُهملت ينبغي التذكير بها : **إنّ إصلاح الكنيسة الكاثوليكية الرّومانية لم يكن يعني أبدا القضاء على سيطرة الكنيسة على الحياة اليومية بل كان يهدف إلى استبدال نمط السيطرة القديم بنمط جديد، أي استبدال سيطرة بدأت تتلاشى حتى كادت تتعدم بسيطرة تدخل كل مجالات الحياة العمومية والخاصّة مشددة ومسيّرة على الناس في سلوكاتهم الفردية والجماعية. إنّ المصلحين في الدول المتقدمة لم يكونوا يشتكون من قوّة السيطرة الدينية على الفرد بل من ضعفها**.

ثم إنّ هناك اختلافا بين الأولياء الكاثوليكيين والأولياء البروتستنتيين في نوع التربية والتعليم الذي يختارونه لأبنائهم؛ فالإحصائيات تظهر أن النسبة المئوية للطلبة البروتستنتيين في الثانويات تفوق بكثير نسبة الطلبة الكاثوليكيين **كما أن البروتستنتيين يفضلون المدارس التي تعدّ للدراسات التقنية والمهن الصناعية بينما يميل الكاثوليكيون إلى العلوم الإنسانية**. هذا فيما يخص التفسير النسبي للوضع الإقتصادي من خلال الظروف التاريخية. من جهة أخرى فإنه معروف لدى الجميع أنّ المصنع يجلب يده العاملة المؤهلة من الصناعة التقليدية التي حملت وحدها أعباء التكوين لهذه اليد العاملة، **فبينما يفضل الكاثوليكيون البقاء في الصناعة التقليدية، يغادرها العمال البروتستنتيون تجاه المصنع ليصبحوا إطارات عليا لليد العاملة المؤهلة ويحتلون أعلى المناصب. إنّ اختيار النشاط ومن ثمّ المسيرة المهنية بكاملها حدّدتها من دون شك خصوصيات ذهنية تبلورها البيئة، أي نمط التربية الذي لقّنه الجوّ الديني للوسط العائلي**.

إنّ البروتستنتيين أظهروا استعداداً خاصّاً للعقلنة الإقتصادية سواءاً كانوا من الطبقات المسيطِرة أو المسيطَرِ عليها وسواءا كانوا أغلبية أم أقلية وهو ما لم يُلاحَظ أبداً عند الكاثوليكيين في كلتا الحالتين وبالتالي يمكن القول أن منشأ هذه الإستعدادات المختلفة لا ينبغي البحث عنه فقط من خلال ظروف خارجية (تاريخية أو سياسية) بل من خلال الطابع الذاتي والمتواصل للمعتقدات الدينية. ومن الأهمية بمكان معرفة العناصر الخاصة بهذه المعتقدات، التي عملت ولا زالت تعمل في هذا الإتجاه. **إنّ الحسّ الحادّ تجاه**

الأعمال (الإقتصاد و التجارة) يصاحبه ويلازمه تديّن يدخل الحياة كلها ويسيطر عليها، ويشكلان الخاصّية المميزة للكنائس والطوائف الأكثر أهمية في تاريخ البروتستنتية، فمذهب كالفين Jean Calvin **مثلا كانت هذه صورته حيثما ظهر حتى كان الإسبان الذين يعتبرونه انحرافا طائفيا يقولون عنه أنه " ينمّي روح الأعمال "** ومثل هذا الكلام قاله سير وليام بتّي Sir William Petty في مناقشاته حول أسباب تطوّر الرأسمالية في هولندا. كان غوثان Ghothein يقول عن المغتربين الكالفينيين (diaspora) أنّهم يشكلون مشاتل للإقتصاد الرأسمالي.

- روح الرّأسمالية :

عنوان يعتريه شيئ من الزّعم لما يلي : ما معنى روح الرّأسمالية؟ يقول فيبر أنه إذا وجد شيئ تنطبق عليه هذه العبارة بشكل معقول فإنه لا يمكن لهذا الشيئ سوى أن يكون " فردا تاريخيا " ؛ أي مركب علاقات حاضرة في الواقع التاريخي تُجمع بناءاً على مدلولها الثقافي في كلٍّ اصطلاحي. **هذا المصطلح التاريخي يستحيل تعريفه وفق الطرق المعهودة كونه راجع إلى ظاهرة إدلالية مأخوذة في طابعها الفردي الخاص، وينبغي إذاً تركيبه تدريجيا انطلاقا من عناصره المتميزة**، تأخذ واحدة بواحدة من الواقع التاريخي.

فالمصطلح النهائي لا يمكن وضعه في بداية البحث وإنما يمكن كشفه في نهايته أو بتعبير آخر فإنه أثناء المناقشة فقط تتجلى نتيجتها الأساسية أي الصيغة المثلى عما نعنيه بروح الرأسمالية. وبالتالي فإننا إن استطعنا أن نحدد الموضوع الذي نحاول تحليله وتفسيره تاريخيا فهذا التحديد لا يعتبر تعريفا اصطلاحيا وإنما " توصيفا " مؤقتا لما نعنيه بروح الرّأسمالية. ولأن هذا التوصيف ضروري بالنسبة للإتفاق حول موضوع الدراسة فإنّ فيبر يعتمد في هذا المسعى اعتمادا شبه كلي على وثيقة يقول عنها: " ... وثيقة لهذه الروح في طهارتها الشبه كلاسيكية تحوي ما نبحث عنه هنا، ثم إنها تَحْضَ في الوقت نفسه بفقدانها لأي علاقة مباشرة مع الدين، يعني ذلك فيما يخصنا خلوّها من الأفكار المسبّقة ". الوثيقة تقع في صفحتين وتتضمن خطابا لبنجامان فرانكلين Benjamin Franklein موجهة إلى شريحة واسعة في المجتمع الأمريكي ؛ التجار الشّبان وكذلك الأعوان (Les commis) : **" .تذكر دائما أن الوقت مال../.من يخسر من وقته ومن دون فائدة ما قيمته 5 شيلينغ، يخسر بالفعل 5 شيلينغ../.من يخسر 5 شيلينغ لا يخسر هذا المبلغ فحسب بل يخسر كذلك كل ما كان يمكنه أن يربح لو استثمر هذا المبلغ في الأعمال../.يمكن تكوين ثروة مالية كلّما تقدم الشاب في السنّ.. ".**

يقول فيبر : " من يَشُكّ في أن روح الرّأسمالية يتكلم هنا؟ **إنّ الخاصية المميِّزة لفلسفة الشحّ هذه يبدو أنها مطلب الرجل الشريف صاحب الجاه وفوق كل هذا، اعتبار**

أن تضخيم رأس المال فرض عين على المجتمع بافتراض أن هذا مبتغى في حدّ ذاته. في الحقيقة ليست هذه دعوة إلى الكيفية التي يصنع بها الإنسان طريقه في الحياة ولكنها " ذهنية " خاصة، يعتبر اختراق قواعدها لا معقولاً ويعدّ إهمالا للواجب. هنا تكمن روح القضية، إنّ الذي يُدَرَّسُ هنا ليس فقط "حسّ الأعمال" ؛ إنه الـ ETHOS وهي النقطة التي تهمنا على وجه الخصوص".

ويستشهد من جهة أخرى بشريكين في الأعمال رأى أحدهما أنه اكتسب أموالا طائلة فعليه أن يغادر النشاط لفسح المجال لغيره ليستفيد هو الآخر ودعا شريكه إلى العمل مثله فضحك منه الشريك وقال له : **"أنا أريد أربح المال ما دام ذلك في استطاعتي"**. يقول فيبر : " واضح جدًّا أن " روح " هذا الكلام بعيدة جدًّا عن روح خطاب فرانكلين. **فما يعبر عند الأول عن جرأة تجارية واستعداد شخصي مجرد من أي طابع خلقي، يكتسي عند الثاني طابع قاعدةٍ خُلُقِيَّةٍ من أجل سلوك مثالي في الحياة** ". إنّ مصطلح روح الرّأسمالية مستعمل في هذه الدراسة بهذا المعنى الخاص. نظرا للكيفية التي طرحت بها المسألة فإنه من الطبيعي أن تقتصر الدراسة على معالجة رأسمالية أوربا الغربية وأمريكا، **فالرأسمالية وجدت في الصين والهند وبابل وفي القرون البدائية والوسطى لكن هذا الـ** ETHOS **على الخصوص هو ما كان ينقصها**. إن كسب المال ـ بطرق شرعية ـ في النظام الإقتصادي العصري هو الثمرة والدلالة على الإتقان والكفاءة في المهنة، ويمكن التحقق بسهولة من أن هذا النشاط وهذا الإتقان هما الألف والياء لأخلاقيات (La morale) فرانكلين كما تظهر في الوثيقة وكما تعبر عن نفسها في كل كتاباته بدون استثناء. إن أداء الواجب من خلال ممارسة المهنة يعدّ المميز الرئيسي " للذهنية الإجتماعية " للحضارة الرأسمالية و من ناحية هو أساسها.

ـ خلاصة:

بعد ما سبق وإذا استحضرنا معتقد البروتستنتيين ؛ أنهم عبر توفيق سلوكهم مع حرفية الأوامر الإلهية، والتعبير عن طاعة الإله الذي يحكم لهم أو عليهم بفعل عدالته إلاّ أنهم يساهمون في اعتماد الفضائل الدّنيوية مثل الإدخار والتعفف والعناية وهي تشكل مقوّمات لا غنى عنها لنظامية المجتمعات الصناعية، فإننا ندرك بوضوح لا لبس فيه طبيعة العلاقة التي تربط بين " الذهنية البروتستنتية " و" روح الرّأسمالية ".